

## ما بعد انقضاء العملية التعليمية (Learners beyond classrooms)

أ. مدني مدور

جامعة العقيد الحاج لخضر باتنة 1 (الجزائر)

### Abstract:

This is a contribution to analyse the reality of Algerian learners beyond learning time. It focuses on the learner final profile, thus, it is an attempt to unveil the reality of knowledge accumulated and its influence on learner along the Learning process observed. the consequences on this process can also be examines as impressions expressed by discourses of majority.

on the basis of these findings, we work for a new learning tendency that aims to reach long-term objectives in order to establish a rational discourse endowed with all necessary assets to understand the very complicated daily reality.

**Key words :** Education-school-mind-- Pluralism and unilateralism-creativity.

### Résumé :

L'apprenant après l'acte d'enseignement-apprentissage, Après la classe, ou l'étape post enseignement-apprentissage est une lecture de la réalité de l'école algérienne en focalisant sur le profil final des apprenants. Ainsi, l'étude tente à dévoiler la réalité des connaissances accumulées et la nature de son influence sur l'apprenant à travers le parcours d'apprentissage observé. Les répercussions sur ce parcours peuvent, également, être recensées en tant que impressions traduites via le discours de la majorité de la population.

En s'appuyant sur ces constatations, notre objectif est de proposer une nouvelle lignée visant des objectifs à long terme en vue de fonder un discours rationnel doté des atouts nécessaires pour comprendre le réel avec toutes ces complications vécues.

**Les mots clé :** L'apprentissage -l'école-La scolarité-La raison- L'unilatéralisme et le multiculturalisme-créativité.

### الملخص:

الدراسة قراءة في واقع المدرسة الجزائرية من حيث المؤهلات النهائية للمتعلمين، ومنه فقد عمدنا إلى كشف القناع عن واقع التراكمات المعرفية وطبيعة مؤثراتها في الأفراد المتعلمين، وذلك من خلال المسيرة التعليمية المشهودة. ولأن النتائج المنعكسة على هذه المسيرة يمكن رصدها كأنطباع عام يدلل عليه جوهر الخطاب السائد في المجتمع. وعليه نحاول أن نطرح خطة بديلة من خلال أهداف بعيدة المدى للتمكين بذلك لخطاب عقلائي يكون أقدر على استيعاب اللحظة الراهنة.

**الكلمات المفتاحية:** التعليم -التمدرس-العقل-المدرسة-التعدد-الأحادية -الإبداع

تسعى هذه الدراسة على الخروج عن تلك الأهداف المصاحبة للعملية التعليمية والتي قد تقتصر على تمكين المتعلم في مجال بعينه، ليكون بذلك مؤهلاً للدخول في الحياة العامة أو سوق الشغل وما يماثل ذلك، على أن هذا التمكين سيغدو بالنسبة لهذه الدراسة محصلة حاصل، من هنا ستحاول هذه الدراسة الرفع من سقف الطموح- وإن كان ذلك نظرياً- ليكون الهدف الذي ظل مهماً، أو متروكاً لتحده الظروف المحيطة بالأفراد المتعلمين، على أن يجعل هذا الهدف ذا صلة بنوعية العملية التعليمية التي ستستهدف طبيعة العقل وجعل المدرسة ترفع من مستوى فعالية هذا العقل على العموم وإن اختلفت مجالات التخصص. علماً أن العملية التعليمية في المجتمعات الحديثة، تعد من أهم الآليات في صناعة الإنسان المتميز الذي يفتح للأمة مجالات أفضل لإحتلال مواقع الريادة.

إن عملية التعليم بناء عليه، تتطوي على هذه الأهمية الإستراتيجية، في تحفيز قدرات الأشخاص وتثبيطها، حيث أنها ستكون محفزاً كلما استطاعت أن تتماشى ومتطلبات الزمان والمكان وتراجع بتراجعها وتأخرها عن نفس المتطلبات، التي يشترط فيها أن تكون مرافقة لراهن المعارف العالمية وأحدث أساليبها ومعاييرها منسجمة مع مناهجها المستحدثة وطرق آدائها.

وإذا كانت العملية التعليمية محكومة بعناصر تتداخل فيما بينها في علاقات متشابكة منبثقة في الأصل عن عناصر ثلاثة:

التعليم كممارسة وأسلوب، على اعتباره الجانب الموضوعي، الإنسان من معلم ومتعلم على اعتباره الجانب الذاتي للعملية، ثم قوة المنهج ن على اعتباره الجانب الفاعل في العملية اجمالاً؛ من هنا ستعكس الأهمية البالغة لهذه التوليفة الثلاثية ككل وللعلاقات الجزئية ضمن هذه التوليفة ذلك أن التعليم كممارسة والإنسان كهدف لهذه الممارسة مجال قد يطول الحديث فيهن وكذلك التعليم والمناهج انتهاء بالإنسان وتلقي هذه المناهج، التي يبدو أنها الأقرب إلى إشكالية هذه الدراسة، حيث سيسنقضي الباحث كما أسلفنا الإشارة جدوى العملية التعليمية بعد انقضائها في خلق كفاءة عقلية تكون أكثر تأهيلاً من واقع كفاءة سابقة تكون جديرة بالتجاوز، حتى وإن كان تصور هذه الدراسة يغلب عليه الطابع النظري، غير أن ذلك لا يمنع أن يكون هدفاً استشرافياً لأن الدراسة في المحصلة ستكون تنطلق من واقع وتسعى إلى فهم الملمح العام لهذا الواقع، ومن خلاله تحاول أن تؤسس لواقع مغاير، من هنا تنحصر إشكالية هذه الدراسة في الإجابة على هذه التساؤلات:

- ما فائدة التعليم إذا لم يتخط الجوانب الكمية إلى التأثير في الجوانب النوعية ؟
- هل أن مراجعة العملية التعليمية تقتصر على الظاهرة السطحية، أم أنها ينبغي أن تمتد إلى باطن الجزئيات العميقة؟
- هل العقل الذي يكون محصلة التعليم يتجدد دورياً؟
- على هذا الأساس فإننا إذا أردنا اختبار واقع العملية التعليمية في مداها القصير، سننظر إلى الفاعلية المحققة على مستوى المتعلم خلال حدوث هذه العملية أو استمرارها، فنختبر الفهم والإستيعاب والتجاوب أو العكس، وهذا ليس هدف هذه الدراسة، التي تطمح إلى اختبار العملية على مستوى المدى البعيد-أو قل بعبارة أخرى-بعد انتهاء العملية التي يغدو معها الفرد جاهزاً لمباشرة دور الفاعل. وبما أن الفاعلية في المدى القصير ترتبط بالتجاوب الحاصل، فإن ذلك على المدى البعيد سيرتبط اجمالاً بالمستويات النهائية في العملية التعليمية، والمقصود هنا الجامعة كمرحلة متقدمة تعبر عن نوع من الإكتمال التعليمي، لأن المستويات السابقة تعبر عن تأهيل يشوبه الكثير من النقص، وعليه ستكون العبرة هنا بالنظر إلى المشهد وفق هذه الحدود القصوى، وجعل الهدف يشمل مراحل الدراسة الجامعية نظراً لما تحققه من اشباع مبدئي للمتعم، وجعل هدف الدراسة منصبا على هذه العينة، وإن كان ذلك نظرياً.

أما مظهر الأهلية العلمية الذي ستشكله هذه المراحل المتقدمة من التعليم الجامعي، فإن الدراسة ستحاول تلمسها في ملكة العقل لدى هؤلاء الأفراد، بمعنى أن الفاعلية المنشودة، ترجع إلى القدرة على تأهيل العقل لدى المتعلمين، من خلال هذه المراحل الدراسية، ليكون هذا العقل عندئذ قادرا على تقديم نفسه على هذين الوجهين:

أ- **عقل تفاعلي:** ويكون ذا طبيعة تجنح إلى الثابت وترضى بالواقع كما هو، أو قد يراد به تلك العقول التي تتأثر فعلا بالإطار المحدود للمادة التعليمية التي تم تلقيها ولا تزيد، وأكثر من ذلك هي عقول بمقدورها أن تحلل وتركب هذه المادة المتخصصة ضمن المجال المتخصص ولا تخرج عنه، بعبارة أخرى هي أقرب إلى عقل تقبلي تحكمه ارادة تتسم بالسكون.

ب- **عقل فعال:** يراد به هنا ذلك العقل الذي يملك ارادة التغيير يتأثر وفي الآن نفسه يؤثر بمعنى أنه يتلقى تلك المادة التعليمية ليجعل منا منطلقا إلى آفاق أخرى، هو عقل يتصف بالحركية يسعفه في ذلك سعة الخيال، وقوة التعبير من خلال اللغة التي يملكها، ويستطيع أن يتجاوز تلك اللغة بابتكار معان جديدة. بعبارة أخرى هو عقل تعدى الإطار النظري إلى الإطار العملي، وبمقدوره أن يبدع وبيتكرو ويقوم بإحداث نقلة معرفية علمية كانت أو فنية.

إذا كانت هذه التناقضات العقلية هي الغاية المنشودة، لإدراك الحقيقة الجوهرية للعملية التعليمية، وعليه سيكون الهدف من هذه الدراسة الوقوف لدى التجليات الفعلية التي سترسم حدودا واضحة تعكس بشكل مباشر تأخر العملية التعليمية من خلال رصد تلك المظاهر القريبة من (العقل التفاعلي)، وإذا كان هذا حال تخلف نتاج التعليم، سيكون بالضرورة طموح آخر لواقع مغاير سنرصده لاحقا، أما حقيقة تأخر العملية التعليمية فيمكن تقديمها فيما يلي:

1/ **انعدام الفاعلية:** حين تخفق العملية التعليمية - وكثيرا ما تخفق - إذا تعلق الأمر بالدول النامية التي تدفع القليل للعملية التعليمية وتنتظر الكثير، أو هي تضع المخططات وتهمل الأهداف القريبة والبعيدة في آن واحد، ويتكرر مشهد الإخفاق إذا كانت التجربة مبتدئة أو كانت هذه التجربة نفسها تخضع لعملية اصلاح، ليتضح بجلاء أن عملية التعليم تتطلب نوعا من المتابعة المستمرة مصحوبة باعادة النظر بين محطة وأخرى، ليتضح من هنا صعوبة التحكم في المناهج وتطويرها لتكون مواكبة لراهن الدولة، وتكثر الأخطاء في بعض الممارسات البيداغوجية وقد تتعدم الأهداف المرحلية والأهداف اللاحقة ...

ولأن غرضنا هنا هي النتيجة بغض النظر عن تفاصيل العملية التعليمية، وسياقاتها، فإن ما تفرزه العملية البيداغوجية في واقعنا سيعكس في هذا الشق الأول حالة من العقل الراكد (العقل التفاعلي)، الذي تتعدم فاعليته، والأمر لا يتوقف عند هذا الحد، بل سيكون مرفقا بتبعات وأمراض مستعصية، حيث يعبر الجابري عن مخاطر ناجمة عن كثير من المناهج التعليمية في العالم العربي ويكون على رأس تلك المخاطر الإنتهاء إلى تمييط العقل، ليسهل بذلك توجيه هذا العقل المنمط إلى ممارسة العنف، "إن التعليم السائد في الوطن العربي اليوم هو إما تعليم قانوني يصنع عقولا قانونية دوغمانية، وإما تعليم ميثولوجي تلقيني يصنع عقولا راكدة أسطورية، والقاسم المشترك بين هذين النوعين هو غياب

السؤال النقدي: سؤال: لماذا؟ وكيف؟<sup>1</sup> والواقع أن انعدام السؤال هو انعدام لفاعلية العقل وتأثيره بل هو شكل من أشكال استقالة العقل عن وظيفته ودوره، من هنا وجدنا أن الفيلسوف لالاند يعرف العقل من خلال هذه العبارة البسيطة: "العقل ملكة الحكم السليم"<sup>2</sup>.

أما تفصيل واقع هذه العقول الحاصلة بفعل المناهج المعتمدة فإن: "العقل الثقافي عقل فارض من الأمور النظرية التي هي ميدان لتعدد الأسئلة والأجوبة، ولذلك تجده مستعدا لتلقي العقائد الجاهزة بمثل السهولة والعادة اللتين يتلقى بهما القوانين العلمية، فليس غريبا إذن أن تكون المعاهد والكليات العلمية من أهم الساحات التي يستقطب فيها التطرف الأنصار.

(...) أما العقل الأسطوري الذي تصنعه المعاهد والكلديات النظرية وكذلك المدارس الابتدائية والثانوية، عقل يتلقى المعرفة على صورة أساطير، روايات، تلقينات، وحقائق جاهزة، فالتاريخ أساطير، والتلاوة والأدب وتاريخه حكايات وروايات، والجغرافيا مكان على الورق وأشباح في المخيلة والتربية الوطنية مراسيم بروتوكولية وتعليمات ادارية...والدين قشور"<sup>3</sup>.

أما ما سينترتب على هذا العقل الدوغمائي أو المؤسّس، هو مزيد من تخلف الأزمة ومزيد من فتح الباب أمام مشاكل لا حصر لها. إن الجابري -كما أشرنا- ربط ظاهرة العنف بهذه الأشكال العقلية، أما أخطر نتيجة يمكن أن نشير إليها هنا بفعل هذا التتميط العقلي، أن ينحدر عقل الأمة إجمالاً إلى مستويات متأخرة يسهل توجيهه من أطراف لا شأن لها بمصالح الأمة وكيف إذا كانت تترصد تلك المصالح وتتأصب الأمة عداً، أو قد يكتب على الأمة أن يكون عدوها من داخلها، لتتحرك حركات داخلية وتحت زريعة الحفاظ على الهوية والأصالة، فتعلق ببعض النصوص المنفصلة عن الواقع تماماً فتضخمها كيفما اتفق الحال وتجعل منها كل هم الأمة، وهي لا تدري أنها تهدر مزيداً من الوقت وتفتح في وجه الأمة معوقات أخرى للحيلولة دون مضيها إلى الأمام.

إن تتميط العقل على هذا الوجه وما شابهه، هو اقرار بالعجز التام عن تحليل الواقع ومناقشة الإشكاليات الفعلية، ومنه تتحول العملية التعليمية إلى ممارسة مفرغة من محتواها، وفي أحسن الأحوال متراجعة في أهدافها، وليس لك بعد ذلك أن تعجب من فتح الباب أمام الرجعية بدل التقدم ومزيداً من انكسار روح المبادرة، واختلال الثقة وتبديد الجهد والوقت...

إن نتيجة التعليم حينئذ لن تخرج من نطاق تبديد الجهد والوقت لصالح الحفاظ على اطار لمدرسة شكلية عديمة الفعالية، حيث سيتضح ذلك من خلال جملة من المظاهر:

أ- **مظهر الوصاية:** لأن الفرد الذي يحمل عقلاً عديم الفعالية لن تكون له إرادة مستقلة في قول أو فعل شيء، إنه انعدام لروح المبادرة والتأثير على مستوى هذا الفرد، وعليه سيخضع لنوع من الوصاية المرافقة لإرادته طيلة حياته يتغير من حين إلى آخر عنوان صاحب الوصاية، هي وصاية أبوية تارة، ووصاية جيل عن جيل تارة، وقد تغدو أكثر تعقيداً لتتحول إلى وصاية عقيدة فاسدة أو وعي زائف تارة أخرى...

من هنا يأتي الفرد وينتهي بنهي وأمر تلك الجهة كيفما كانت أو هو رهين معارف من خلال (الوعي الزائف) وفق ما يرى كارل مانهايم<sup>4</sup>.

والحقيقة هي عطالة العقل التي لا تتناقش وإذا حدث وأخفق هذا العقل في حل معضلة عارضة لم يعاود الكرة، وازداد يقينه من عدم جدوى أن يبذل ثانية لأن النتيجة لن تأتي، وإذا حدث ورأى أمامه أي الفرد صاحب العقل من استقامت له الأمور من بقية الأمم فهو في هذه الحال يلجأ إلى اقناع ذاته بحجج تليفقية، أو هو يبرر ذلك النجاح بالحظ الذي خذله وناصر غيره، وما يكون أقرب إلى الحظ هو تعليقه الأمتل لتحقيق نجاح غيره، وقد ينتهي بهذا الفرد إلى الوقوع ضحية لأمراض نفسية مستعصية ترافقه طيلة حياته. إن اتساع دائرة هذه الذوات محل الوصاية تتحول إلى ظاهرة مجتمعية وتنتقل من التبسيط إلى التعقيد، وكلما طال الزمن، ازدادت الأساطير لتبرير هذا العقل المستكين من هنا جاء في قوله تعالى: «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه يباءنا أو لو كان آباءهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون» (البقرة - الآية 171)\*

إن الوصاية، هي التي تتأسس بفعل إعمال العقل في الأسباب الحقيقية لنوع من الظواهر بل الوصاية هي تعطيل إرادة الأفراد تحت مبررات شتى، وأسوأ ما في الأمر أن يتم تكريس هذه الوصاية أثناء العملية التعليمية التي تصدر إرادة المتعلم من خلال القضاء على روح التساؤل، وعن طريق تثبيت قاعدة: (هل استطاع غيرك لتستطيع؟)

وإذا أضيف إلى هذا كله توجيه عملية القراءة من المعلمين وفق ممارسة انتقائية تقوم على اقرأ ولا تقرأ أو أنه لا ينبغي أن تناقش هذه الفكرة ما دامت تخالف معتقدك، وما يدخل ضمن هذا الإطار، العملية ببساطة كلما سادت روح التفقيه حلت الوصاية على العقل .

ب- **مظهر الأحادية:** حين نوظن العقل على الأحادية، وانعدام المختلف في الرأي والفكرة والمذهب وحتى المعتقد، سيتحول شأن هذا العقل إلى حالة منحازة إلى الفتوية الضيقة ، فإذا كان صاحب هذا العقل ينتسب إلى قبيلة أو مذهب عرقي أو ديني، سيظل رهينا لأطره المحدودة يصعب خلق مجال للتواصل مع الغير حتى ضمن المجتمع الواحد، ومن هنا كان من أحد أهم وظائف المدرسة في فلسفة جون ديوي: "اقرار التوازن بين مختلف عناصر البيئة الإجتماعية من نحل دينية وأجناس متباينة وغير ذلك، فتكون المدرسة هي البوتقة التي يصهر فيها أفراد المجتمع ويتقاربون في مشاربهم وتقاليدهم وعاداتهم"<sup>5</sup> بعبارة أخرى هو يقر بالتوازن بين المختلف ولا يصادر المختلف ويجعله أحاديا وإلا سقط دور المدرسة الذي ينبغي أن يؤسس لروح التماسك داخل الجماعة التي لا تخلو من المختلف، من هنا سيتم دعم هذه الوظيفة بوظيفة أخرى يقتصر دورها على ذوات الأفراد حيث يتم هنا: "توحيد نفسية الفرد حتى لا تتجاذبه طوائف الأمة المختلفة فتفتكك نفسيته"<sup>6</sup>. وهنا أيضا يتم اللجوء إلى الملاءمة بين المتعدد بدل مصادرة ذلك الطيف المختلف وجعله أحادي اللون.

إن بعد الأحادية إذا هيمن في العملية التعليمية سينتج عقلا أقرب إلى التعصب ليكون مآل ذلك الإنغماس في التقليد والإتباع الأعمى لتكون النتيجة أقرب إلى توقع هذا العقل ضمن نسقه الخاص الذي لا يتقبل معه المختلف كيفما كان، والسقوط في نوع من النرجسية الذاتية. إننا بهذه الأحادية نؤسس لضياح الهوية في الوقت الذي كانت فيه المراهنة على إيهام النفس بالمحافظة عليها، لأننا لم نحسن صناعة عقل مؤسس على التعدد يعرف قوته وضعفه من خلال تشابهه مع الطيف وليس انطلاقا من عزلته الهشة التي تتصدع بمجرد اقترابها من الآخر المختلف، إنه نوع من الحساسية المفرطة التي لا تقبل الإصطدام مع المتنوع. وإذا تعقد الأمر انطلاقا من هذه الأحادية ليلبغ درجة من التعصب في ظل العقيدة أو الإيديولوجيا أو الرأي ومصادرة المختلف إلى حد المعادة والعزلة القائلة.

ج- **مظهر التتميط:** من أبعاد ومظاهر انعدام الفاعلية، السقوط في التتميط والشكلية الجوفاء، حيث يتحول العقل الناجم عن العملية التعليمية إلى ملكة لا تحل مشكلة ولا تستوعب حجم الإشكالية في نطاقها الأوسع، إنه عقل يرتكز على جملة مسلمات، عقل عاطل عن الفهم المعمق للظواهر، عاجز عن إيجاد منهج للحياة. حقيقة هذا العقل الجمود والخمول، سيكون ادراك المتعلم من خلاله ضعيفا أو قد تلم بهذه الذات بعض الظروف الصحية أو الإجتماعية أو النفسية، فيصيح بها الشطر الأكبر من حياته، لتتحول عملية التعليم إلى مجرد حدث ثانوي لا تغير من ارادة هذا العقل شيئا، والأسوأ منه أن ينحرف الهدف فبدل أن يواجه معتقدات فاسدة، يكون أداة لتكريس هذا الفاسد واعطائه مزيدا من الشرعية التي تدعم بقاءه.

أما الأسباب العميقة لمظهر التتميط هذا فسيكون خصوصا نتيجة بعض الممارسات التقليدية التي دأبت عليها المدرسة الكلاسيكية، من هنا نادى ديوي " بضرورة اعتماد المدرسة على نشاط التلاميذ وعلى اشتراكهم في العمل حتى تكون المدرسة صورة مصغرة للحياة الاجتماعية، وحتى يكون للعلوم المختلفة التي يدرسها كاللغة، والحساب والتاريخ والجغرافيا، والطبيعة ، والكيمياء ، وغير ذلك ، لها معنى واقعي مستمد من الحياة، وليست مجرد نظريات تقرأ في الكتب وتحفظ عن ظهر قلب دون أن يستبين التلميذ مالها من صلة بالحياة الإجتماعية"<sup>7</sup>، المسألة أقرب إلى تفادي الشكلية والتخلص من تلك الممارسات الآلية التي تؤدي بالضرورة إلى تتميط العقل.

إن انحراف عملية التعليم يؤدي بالضرورة إلى خلخلة الوعي، لأجل ذلك تتداخل المسارات ويصعب التخلص من الشكلية إلى الواقعية.

د- مظهر سد الفراغ: عجز العقل عن المواجهة وفهم الظواهر على وجهها الأكمل يكون مآله الدخول تحت سلطة نص ما. وفي عالمنا العربي الإسلامي تتضح هذه الظاهرة بجلاء، حيث يتم استبدال فاعلية العقل باستمداد الحلول للمشاكل الطارئة من نصوص لم يكن لها لتتسع لحاجات البشر المتجددة والمتنوعة والتي تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، وممكن الخطورة هنا على وجه التخصيص سيتمثل في الأخذ بحرفية النص نتيجة مصادرة فاعلية العقل، ليرتب على ذلك تعطيل الاجتهاد وإدارة الظهر للرأي وأحياناً القياس والإجماع، وقد حدث هذا في رأي جورج طرابيشي مع ابن حنبل، "إن تسنين العقيدة القويمة في الإسلام تعود بداياته الأولى إلى أحمد ابن حنبل (241-290هـ)"<sup>8</sup>، وسواء سايرنا هذا الرأي أو اختلفنا معه فإن الحقيقة التي لا يمكن الهروب منها كون العقل العربي المعاصر لجأ إلى النص في لحظة انسداد السبل أمامه ليستمد منها حلول معضلاته بكيفيات يشوبها الكثير من عدم التثبت.

إذا كان العقل هو الذي يعد ملكة الحكم، فإن انعدام فاعليته نتيجة قصور العملية التعليمية، يجعل منه معضلة بدلا أن يكون أداة للحل.

2/ احلال الفاعلية: بالمقابل حين يكتب النجاح للعملية التعليمية وتصرف لها الأهمية القصوى على مختلف الأصعدة، تظهر - بالضرورة فاعلية العقل، من خلال القدرة على طرح السؤال، ومواجهة الإشكاليات الكبرى للأمة، إنها القدرة على إنتاج (عقل ناقد). وعليه يرى الجابري أن "ضرورة العقلانية بالنسبة للوضع العربي الراهن تتجلى وتتمثل خاصة في الروح النقدية. فالمسألة لا تتعلق باستيراد عقلانية ما أو بتبني عقلانية ما، بقدر ما يتعلق الأمر بنقد الفكر العربي، نقد العقل العربي، بنشر الروح النقدية، روح المراجعة المستمرة للفكر"<sup>9</sup>. من هنا يكون من الواضح أن تحقيق هذه العقلانية لن يتأتى من فراغ بل يتحقق من خلال برنامج تعليمي ثري.

و إذا قال قائل، ماهي الكيفية التي تتحقق بها هذه الفاعلية ؟

سنجد أن حسن حنفي يعتبر " أن السؤال ليس شبهة بل هو خلق حضاري و بداية لتحدي الواقع وتنظيره بالفكر"<sup>10</sup>. بعبارة أخرى إذا لم يكن العقل مهيباً لاستيعاب المشكلات المطروحة -بالضرورة- لن يتحقق لديه المستوى الإدراكي الكافي لفهم ما يدور.

على أن "العقل هو وسيلة وضع الحقائق وإثباتها..."<sup>11</sup>. وفي حال تبين الخروج عن تلك الحقائق فإن ملكة العقل هي التي يتهب لها التنبيه إلى الخروج والانحراف و إن كان الأمر في بداياته، وهذا العقل نفسه هو الذي يعيد النظر في الحقائق ويحاول نقدها باستمرار العقل الفعال الذي نطمح أن يكون نتاجاً للممارسة التعليمية الناجحة، هو الذي لا يسلم بالأمور بل يناقشها، لا يجمع معارف، بل يبني قنوات، لا يقبل إنما يعارض، وسيلته طرح الأسئلة باستمرار، أما طبيعة المعرفة التي يستهدفها، إنها تتميز بالإمتداد والتوسع وطلب الدقة، وإذا كان جل هذا مدعوماً بنوع من الثقة التي تزداد كلما نضجت مدارك هذا العقل وأفهامه واستطاع أن يوجد له لغة مؤهلة للتعبير عن مختلف حاجياته.

العقل النقدي يشاكس ولا يذوب في مؤثرات المجتمع، بل يمكنه أن يخالف أو يعارض أنساقاً تم توارثها والتسليم بها، من قبيل الأساطير و العادات المنحرفة وبعض المعتقدات الفاسدة. العقل الناقد لا يعرف التقليد، يستطيع أن يؤثر ويغير لأنه عقل فاعل، وهذا العقل يجعل الأفراد والمجتمعات ذوي إرادة كاملة، في القول والعمل، في التفكير وممارسة الفلسفة ومجابهة أعقد المشكلات .

ومن هنا يعتبر الجابري أن "الخطاب النهضوي العربي المعاصر (سواء كان سلفياً أو ليبرالياً أو حتى ماركسياً) يفتقد ما يكفي من العقلانية، مما يعني أن ضرورة الفلسفة في الفكر العربي الراهن، تعادل ضرورة العقلانية، ضرورة العقلنة"<sup>12</sup>، وهذه العقلنة لن توجد مصادفة، بل تحققها حاجة الإشكاليات المطروحة أولاً، ويحققها ثانياً التخطيط لإيجاد هذه الأداة من خلال العملية التعليمية الناجحة.

يرى بعض الدارسين أن المناهج المدرسية أقل طموحا في دول افريقيا من أن تكون بمستوى التطلعات المطروحة في الواقع ، وقد اعتبر ذلك نتيجة تلك المناهج التعليمية غير المتصلة في تربة واقع هذه الدول، " أما الدراسات العلمية التي تعنى بتحليل هذه الأوضاع تحليلًا علميًا دقيقًا، ينطلق من واقع الحياة الاجتماعية والتركيبات السكانية المعقدة ، فهي الأخرى لما تحظ باهتمام وزارات البحث العلمي والتعليم العالي في القارة، وحدث ولا حرج عن ضحالة الميزانيات والرواتب التي ترصد للبحث العلمي وللعلماء المخلصين في خدمة

دينهم ومجتمعاتهم"<sup>13</sup>. ورغم أهمية هذا الجانب المادي في تحقيق أهداف الدراسة العلمية، غير أن الأكثر إلحاحا هو وعينا بالحاجة الملحة، إلى الإصلاحات الضرورية التي تؤهلنا إلى ايجاد منظومة تعليمية ناجحة.

إن الفاعلية العقلية المرجوة، سيكون لها جملة مظاهر - في حال تحققها - يمكن تلمسها من خلال مايلي:

أ- **مظهر الإستقلالية:** يكتسي العقل مظهر الإستقلالية منذ بداياته التعليمية الأولى وذلك من خلال تقصد تحقيق ميول الطفل المعرفية كما يرى جون ديوي، بل يعتبر أن جوهر التربية الحديثة سيكمن في هذا الإستهداف الموجه إلى الطفل على أن " مركز الجاذبية واقع خارج نطاق الطفل، إنه في المعلم . في الكتاب المدرسي . بل قل في أي مكان تشاء عدا أن يكون في غرائز الطفل وفعالياته بصورة مباشرة ."<sup>14</sup> وعلى هذا الأساس يتم الإستفادة من فاعلية الطفل وتمييزها في سن مبكرة . أما الهدف البعيد فهو خلق شكل من الإستقلالية المحققة من خلال تقصد فردية الطفل، " ولكن في اللحظة التي يعمل فيها الأطفال يميزون فرديتهم ويكفون عن أن يصبحوا كتلة، وإنما يصبحون كائنات متميزة إلى درجة كبيرة، وهي الكائنات التي نعرفها خارج المدرسة ، في البيت والأسرة والملاعب والجيرة، وعلى هذا الأساس نفسه يمكن توضيح وحدة الطريقة والمنهج"<sup>15</sup> . بعبارة أخرى إذا تم تهيئة جو كامل لتثنية الطفل انطلاقا من ميوله سيتحقق لنا بعد حين تنوع على مستوى مجالات متعددة، تعطي ثراء للمجتمع، ولكن الأهمية هنا تكمن في قوة الإنتماء إلى المعرفة محل الرغبة ، العقل هنا يثبت له مزيدا من الإستقلالية من خلال ارادة كاملة على الفعل ، والقدرة على صناعة رأي وتوجه خاص لا تحكمه وصاية مباشرة أو غير مباشرة من أشخاص أو دعايات مذهبية أو سياسات أو ايديولوجيات .

إن الإستقلال يمنح فرصة كاملة للأفراد لمباشرة الفعل المتأمل، ويسقط كل تبعية مسبقة لفئات ضيقة، أو مرجعيات فكرية محدودة قد تكون مستمدة من عصر آخر لا يخدم قضية الأمة. هذه الإستقلالية لاشك تزدهر أكثر في ظل الحرية، وينتج عن ذلك نوع من التعايش بين هذه الذوات ويؤدي هذا التناغم إلى نسيج اجتماعي متين، تسقط فيه الإنتماءات القبلية والفئوية الضيقة التي تحول دون التقدم، وتكرس لنوع من المشاكل التي تستنفد جهود الأمة وتطيل من عمر أزماتها.

بناء عليه ستتراجع نزعة التفرقة، ويتم التأسيس لمجتمع متكامل قادر على الصدور انطلاقا من الراهن بل من هنا سيكون على هذا المجتمع أن يتجاوز عقد النقص والإحباط، وهذا كله سيدخل ضمن مجتمع معافى واضح الشخصية محدد الهوية ، تختفي فيه أمراض الصراعات المستنزفة.

إن التعليم حين يتأسس على نوع من التأصيل لإستقلالية ارادة الأفراد واستقلالية تفكيرهم وتوجهاتهم ، سيؤدي ذلك بالضرورة إلى تبادل الأدوار وفق منطق الإسهام الفعال في بناء الحاضر بعيدا عن مظاهر الوصاية المستنزفة.

ب- **مظهر التعددية:** إن العقل الذي ينشأ في كنف مناهج تعليمية ، مؤسس على مبدأ الإختلاف ، وعدم الغاء الآخر، لمجرد كونه مختلف عقديا أو مذهبيا أو لونيا أو عرقيا حيث تقصر المادة التلقينية للمتعلمين على الإنحياز المطلق لأننا ونفي الآخر كيفما كان فيكون مؤدى ذلك الإنخراط في نوع من الأحادية الهشة ، التي تحول دون الإشتغال على الإشكاليات الكبرى للمجتمع، ويتم تبديد الجهود لصالح قضايا فرعية بحجة الإنتماء إلى الأحادي الخالص ، بل يكون مؤدى ذلك مزيدا من الإنغلاق .

مجالات الاختلاف أضمن لتحقيق التنوع المنشود، الذي يوفر نطاقاً أوسع للتواصل وهو ما يترتب عنه مزيداً من الأفكار المتنوعة والخبرات الهامة، في مقابل محدودية هذا التواصل عند التأسس من خلال الأحادي، قد ينحدر إلى حدود الذكورة دون الأنوثة والعكس، ويعجز عن تجاوز مجال الجنس الواحد إلى الثاني، وهذا ما يفسر العديد من الأمراض الاجتماعية التي نعرفها في واقعنا.

إن مسألة تقبل الآخر، والتواصل معه والإفادة من المصالح المتقاطعة معه رهان تكفله الطبيعة الذهنية التي تصنعها المنظومة التعليمية، وهذا الأمر قد يبدو للوهلة الأولى غير ذي بال، ولكن الأمر خلاف ذلك، حين تكتشف انسداد أفق الأفراد عن أدنى تقبل للآخر، الذي يتكلم لغة مغايرة، ويمارس طقوساً دينية مختلفة، وينتمي إلى عادات خاصة به، وإذا ارتبط الأمر بلون البشرة، فإما شعور بالنقص أمام هذا اللون، وإما شعور بالتفوق أمام ذلك اللون والأمران في الحالة الأولى والثانية هو نتيجة ضعف في التكوين ينتهي إلى عدم أهلية هذا العقل في التعامل مع المختلف.

العقل الذي يؤمن بالمختلف عقل متزن، لا يميل إلى النرجسية الحاملة، أو إلى الشعور بالدونية، عقل مؤسس على الإنتاج.

**ج- مظهر المنهجية :** يوفر المنهج للأفراد القدرة على التوجه السليم بأقل كلفة وأيسر طريقة إلى طريقة إلى تحقيق الغاية من الدراسة أو من أي ممارسة صناعية أو فنية، واصابة الغرض المنشود وإدراك الحل المطلوب للمشكلة العارضة، ذلك لأن الأداة سوية، وهي المنهج. هذا العقل الذي ينشأ على الممارسة المنهجية، بعيداً عن العشوائية وأخذ الأمور كيفما اتفق الحال، هذا المنهج هو نفسه الذي يستطيع استيعاب الطول الممكنة للإشكاليات الكبرى، ويمكنه الإسهام في حل بعض الظواهر قبل استفحالها، نتيجة القدرة على الملاحظة وطرح الفرضيات الممكنة لذات الغرض.

إن المنهج هو الممارسة التي تكشف عن جدوى الفعل الناجم عن عقل مؤسس من خلال نسق معرفي يضع في حساباته الموضوعية والدقة العلمية، ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد يكون مصحوباً برؤية ابستمولوجية تتابع خطة بنوع من النقد الذي يحاول في كل مرة إعادة النظر في المسلمات والبداهيات، ويصحح النظرية التي يصدر عنها هذا المنهج.

**د- مظهر الإبداع:** حين يقدم شخص نفسه بأنه مبدع في مجال الصناعة أو الفن أو أي شكل من أشكال المعرفة، فذلك دليل قطعي على نزوح العقل إلى حد الإنتاج، أما محصلة هذا الإنتاج، فبالضرورة لم تأت من فراغ، إنما هي حاصل ممارسات طويلة، ودراسة مستفيضة تنتهي أخيراً إلى تحقيق منتج جديد، وتقصدت هنا أن أهمل ما يتعلق بالإلهام بوصفه عملية حدسية تصل إلى النتيجة دون مقدمات، لأن غالبية الدراسات الحديثة التي تتناول الإبداع، تعتبر أن مجال الإلهام إن وجد فهو محصور للغاية، والأصل سيتمثل في هذا الجهد والعمليات المتواصلة لتحقيق المنتج الجديد.

إن عقلاً يبلغ هذا الحد من الإبداع هو عقل بالضرورة جاء نتيجة أطوار تعليمية جيدة تحسن الرفع من قدرة هذا العقل إلى درجة فاعليته الحقيقية، من خلال جعله يبدع على مثال أو على غير مثال، عقل يبتكر ويكتشف ويصنع تميزه من خلال التمكين لمجتمعه في مختلف المجالات.

فاعلية الأفراد من خلال مظهر الإبداع، تعبر عن ذروة نجاعة العملية التعليمية، وكثرة العقول الخالقة، هي التي تعكس دون جدال ناح المنظومة التعليمية، وهو ما سيعطي إمكانية دخول الأمة في عهد جديد، على مستوى العلوم الإنسانية أو العلوم التقنية، التي تم طلاقها مع تلك الممارسات الأسطورية أو الدوغمائية، وأعطيت نفساً بناءً على حاجة الأمة. مظهر الإبداع هو تمام النجاح ومنتهاه، لأن هذا التحقق سيكشف أرضية جديدة، وخطاً فاصلاً بين مرحلة وأخرى، وهذا كله يكون حاصل استهداف العقل الذي أعطي الاستقلالية من خلال مساحة الحرية، وأعطى التعدد من خلال كسر النرجسية وعقدة النقص، وأعطى المنهجية من خلال تجاوز العشوائية وصار مبدعاً كمحصل جوهرية. هذه



الدوائر هي محصلة استهداف ملكة العقل التي أثبتت أهميتها على مدار امتداد التاريخ. مظهر الإبداع يعني في المحصلة القدرة على إحداث ذهنية جديدة ووعي جديد. إنه التميز في أعلى صورته.

العملية التعليمية هامة في حياة المجتمعات لا شك في ذلك، وأهميتها تزداد أكثر كلما استطعنا فهم مجالات انعدام جدواها، والعمل على نقد دائم لمناهج هذه العملية التعليمية ومحتوياتها بغرض التجديد والتغيير، التعليم هو الوسيلة المثلى لصناعة الإنسان، وإذا كتب النجاح للمجتمع في هذه الصناعة انقادت له جميع القطاعات لأن الإنسان هو الطاقة المحركة كما أنه المعوق الحقيقي أمام كل تنمية وتطلع إلى آفاق أبعد .

#### الهوامش:

- 1- الجابري ، محمد عابد،"المسألة الثقافية في الوطن العربي"،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، لبنان،نوفمبر 1997،ط2،ص165.
- 2- لالاند، أندريه،"الموسوعة الفلسفية"، المجلد الثالث،ترجمة خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، لبنان،ط2، 2001، ص1161.
- 3- الجابري ، محمد عابد،" المسألة الثقافي في الوطن العربي"، مرجع سابق، ص 164.
- 4- عبد الله العروي ،"مفهوم الإيديولوجيا، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء،1993، ص 11.
- 5- الأهواني، أحمد فؤاد،"توابع الفكر الغربي"، جون ديوي، دار المعارف ، القاهرة، مصر .ط2.ص 45-46.
- 6- الأهواني،أحمد فؤاد:المرجع نفسه ، ص 46.
- 7- المرجع نفسه،ص 46-47.
- 8- طرابيشي ، جورج،" مصائر الفلسفة بين المسيحية والإسلام"،ط1،دار الساقى،بيروت،لبنان،1998، ص 82.
- 9- الجابري،محمد عابد،" التراث والحداثة" ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، لبنان، ط 2، 1999، ص 243
- 10- حنفي،حسن،"التراث والتجديد"، من العقيدة إلى الثورة ،ج5،دار التوزيع للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان، 1988، ص404.
- 11- المرجع نفسه ، ص 504.
- 12- الجابري، محمد عابد:التراث والحداثة،مرجع سابق، ص 242.
- 13- سانو، قطب مصطفى،"النظم التعليمية الوافدة في افريقيا (قراءة في البديل الحضاري )" ،كتاب الأمة ، سلسلة دورية ، قطر ، العدد 63، محرم 1419هـ، السنة 18، ص90.
- 14- ديوي، جون،" المدرسة والمجتمع" ، ترجمة أحمد حسن الرحيم، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، ط، ص54.
- 15- ديوي، جون، المرجع نفسه، ص53.